منظمة شنغهاي للتعاون الإقليمي

أ.م.د ابتسام محمد العامري

رئيس قسم الدراسات الآسيوية

دفع انهيار الاتحاد السوفيتي والمشاكل الداخلية التي واجهتها روسيا والدول التي انفصلت عن هذا الاتحاد لا سيما في قارة اسيا الى محاولة الولايات المتحدة وحلف الناتو مد نفوذها وتأثيرها الى هذه المنطقة ، لكن الصين وروسيا التي بدأت تستفيق من غيبوبتها وتسترد عافيتها شيئا فشيئا اخذتا تنسقان جهودهما للحد من النفوذ الامريكي والغربي على مناطق نفوذهما في منطقة آسيا الوسطى خاصة ، لذا استغلت الصين زيارة الرئيس الروسي الاسبق (بوريس يلتسين) لدولتها في نيسان 1996 لتعلن عن خطوة مشتركة واساسية بأتجاه تعزيز الاستقرار على حدود البلدين بتوقيعها مع روسيا وكل من كازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان في مدينة شنغهاي الصينية في 26 نيسان لإتفاقية واسعة النطاق حول اجراءات بناء الثقة في المناطق الحدودية سميت ب(إتفاقية شنغهاي) التي اصبحت ميثاقا متعدد الاطراف ذو تأثير مهم ليس فقط على العلاقات بين البلدين ، ولكنها تمارس تأثيرا مهما على الاوضاع المشابهة في المناطق الاخرى من آسيا – الباسفيك ، حيث تحولت حدود الدول الجديدة في مجموعة الدول المستقلة (CIS) الى مناطق للسلام والتعاون الاقتصاي .

ولم تقف هذه الدول عند هذه الخطوة بل اخذت بعقد اجتماعات سنوية في احدى عواصم الدول المنضوية تحت لواء هذه الاتفاقية ، ويعبر انتظام هذه الاجتماعات عن الملامح الاولى لمأسسة النظام الاقليمي الجديد بتحول الاتفاقية الى منظمة اقليمية اعلن عن تشكيلها في اجتماع القمة الذي انضمت اليه اوزبكستان والذي انعقد في مدينة شنغهاي في 15 حزيران 2001 عرفت بإسم (منظمة شنغهاي للتعاون SCO) والتي اصبحت منظمة رسمية حسب مبادئ القانون الدولي في عام 2002 حيث وقع قادة دولها الست في اجتماعهم المنعقد في مدينة سان بطرسبورغ الروسية على نظام المنظمة وقوانينها ومبادئها وهيكليتها وطرق عملها ، حيث تم المصادقة على وضعية مجالس كل من رؤساء الدول ورؤساء وزارات الدول ووزراء الخارجية والمنسقين القوميين ، واجتماعات مسئولي الوزراء والادارات والسكرتارية ولائحة القانون المنظم للجهاز الاقليمي لمكافحة الارهاب ووضعية الممثلين الدائمي العضوية للدول المشاركة في امانة المنظمة ، كما تم التوقيع اتفاقية نظام التمويل وتنفيذ ميزانية المنظمة .

وبحلول عام 2004 تم اكتمال تأسيس الهياكل الادارية للمنظمة بأجتماع طشقند الذي عقدته دول المنظمة في العاصمة الاوزبكية مما يعني الالتفات الى صياغة الاهداف التي تتلائم مع هذه المرحلة ، فضلا عن التركيز على القضايا السياسية والاقتصادية التي تأتي بعد القضايا الامنية التي شكلت محور عمل المنظمة منذ تأسيسها .

بذلك عدت منظمة شنغهاي النتيجة الاهم لنضوج العلاقات الامنية والسياسية والاقتصادية بين دولها الامر الذي يجعل من بزوغ المنظمة التي ترسي لنظام اقليمي مؤسسي جديد ضرورة ملحة في ظل الحاجة الى جهاز اداري له القدرة على تحقيق

التنسيق الامني والسياسي والاقتصادي ، ومتابعة الاتفاقيات التي تم التوصل اليها بين دول المنظمة .

لقد اكتسبت المنظمة استقلاليتها الذاتية النسبية رغم وجود حالتين : الاولى : عدم توازن القوى بين اعضائها المختلفين في نواحي القوة ، والثانية : تمتع كل من الصين وروسيا بنفوذ قد يطغى على باقي الاعضاء .

وسعيا من المنظمة لتوسيع منطقة نفوذها وزيادة حجم تأثيرها وابراز فاعليتها فقد وجهت ابتداءا من عام 2004 الدعوة لكل من منغوليا وابران والهند وباكستان للأنضمام الى المنظمة بصفة مراقب لها الحق في حضور الاجتماعات السنوية للمنظمة في الوقت الذي رفضت طلبا تقدمت به الولايات المتحدة للانضمام في عام 2005 ، فضلا عن افغانستان التي تحولت من صفة الضيوف الى صفة مراقب في عام 2012 ، كما وجهت الدعوة لكل من سريلانكا وبيلاروسيا للانضمام للمنظمة بصفة شركاء حوار ، فضلا عن تركيا التي انضمت الى المنظمة تحت هذه الصفة في عام 2012 ، وتضم قائمة المنظمة ايضا الدول التي تحضر اجتماعات المنظمة بصفة ضيوف والتي تمثل كل من مجموعة دول كل من منظمة كومنولث الدول المستقلة (CIS) ومنظمة الآسيان .

تعد هذه المنظمة بنظر العديد من المحللين منظمة اقليمية تمتلك من القوة والتأثير ما سيجعلها تفرض نفسها على العالم مستقبلا ، فضلا عن اسهامها بدور هام في التأثير على المعادلات الدولية وحل الازمات السياسية والاقتصادية العالمية بفضل الثقل الجيوسياسي والاقتصادي الذي تمثله دول المنظمة الست التي تغطي مساحة تبلغ اكثر من 30 مليون كم مربع ويسكنها اكثر من مليار ونصف من البشر ، فضلا

عن الطاقات البشرية والاقتصادية الضخمة للصين ، والاحتياطات الكبيرة من الغاز الطبيعي والنفظ والاقتصاد المتعافي لروسيا ، والموقع الجيوستراتيجي المتميز والاسواق الواعدة لدول آسيا الوسطى . وفي حال اكتساب الدول التي تحتل صفة مراقب لعضوية المنظمة الدائمة فان الاخيرة ستزداد تأثيرا على المستويين الاقليمي والعالمي .

سعت المنظمة منذ بداية تأسيسها الى تحقيق اهاف عدة ابرزها :

١ – مواجهة المخاطر التي تواجهها دول المنظمة والتي اطلقت عليها تسمية (قوى الشر الثلاثة) المتمثلة بالارهاب والتطرف الديني والاثني والحركات الانفصالية في دولها .

٢ – محاربة تجارة المخدرات وتهريبها عبر الحدود على وفق آلية مشتركة .

٣ – التصدي لعصابات الجريمة المنظمة العابرة للحدود .

٤ – تعزيز سياسات التعاون وحسن الجوار بين الدول الاعضاء .

٥ – ترسيم الحدود بين الصين وروسيا من جهة وبين بقية اعضاء المنظمة من جهة اخرى بما يعزز امن الحدود واجراءات بناء الثقة .

٦ – السعي لتقليص النفوذ الامريكي في القارة الآسيوية .

٧ – تطوير التعاون الفاعل بينهما في مجالات السياسة والاقتصاد والتجارة والعلوم والتكنولوجيا والثقافة وفي شوؤن التربية والسياحة والطاقة وحماية البيئة .

٨ – بذل الجهود المشتركة لارساء قيم الديمقراطية وتحقيق الامن والسلام على المستويين الاقليمي والدولي .

٩ – انشاء منطقة للتجارة الحرة بين دول المنظمة .

١٠ – اقامة مشاريع مشتركة في قطاعات النفط والغاز والموارد المائية .

١١ – العمل على انشاء مصرف مشترك سيأخذ على عاتقه اصدار عملة موحدة في المستقبل .

اذن المصالح المشتركة التي جمعت بين الدول الاعضاء والتي تمحورت حول حتمية التعاون الامني ، وصياغة رؤية استراتيجية شبه موحدة تجاه العديد من القضايا الاقليمية والدولية ، ساهم في انجازها عوامل اخرى مثل رفض هذه الدول التي تقع على امتداد جغرافي واحد الهيمنة الامريكية عليها ، وخشيتها من المد الاسلامي الخارجي الذي يمكن ان يترك انعكاساته السلبية على امن واستقرار دول المنظمة التي تتواجد فيها حركات اسلامية بعضها متطرفة وبعضها الآخر انفصالية ، الامر الذي فسر سعي دول المنظمة على تقديم المساعدة اللازمة لأستتباب الامن في افغانستان ودعوة رئيسها (حامد كرزاي) لحضور اجتماعات المنظمة .

اخذت المنظمة تركز جهودها منذ خمس سنوات نحو تعزيز اسس التعاون الاقتصادي اكثر من غيره من الجوانب لا سيما بعد ان اقرت المنظمة برنامجا للتعاون التجاري الاقتصادي الطويل الامد حتى عام 2020 خاصة وان بلدان المنظمة تتوافر لديها من امكانات كبيرة للعمل المشترك .

تحتاج بعض دول المنظمة لا سيما روسيا وكازاخستان واوزبكستان التي تحوي باطن اراضيها كميات ضخمة من مصادر الطاقة والمعادن المختلفة لأسواق جديدة تستوعب منتجاتها ، فيما تعد الصين واحدو من اكبر مستهلكي الطاقة في العالم واذا ما اخذنا الزيادة الحاصلة في استهلاك الطاقة العالمية ، وارتفاع اسعارهارها في الاعتبار تصبح الشراكة في مجال الطاقة احد ابرز مجالات التعاون واهمها بين دول المنظمة .

وتستخدم الصين منظمة شنغهاي لزيادة نفوذها الاقتصادي في دول آسيا الوسطى ، فيما نجد الاخيرة مهتمة بتنامي النفوذ الصيني في منطقتها بهدف الموازنة بين هذا الدور وكل من الدورين الروسي والامريكي المؤثرين في آسيا الوسطى ، اما بالنسبة لروسيا فأن المنظمة تشكل لها وسيلة من وسائل تنمية اقتصادها وتعزيز قوته ، والابقاء عل وجودها وتأثيرها في أهم مناطق نفوذها الا وهي آسيا الوسطى .

رغم ان منظمة شنغهاي لم تشر في اعلان تأسيسها الى الجانب العسكري ، الا ان دولها اجرت مناورات عسكرية مشتركة اكثر من مرة ، مما جعل الكثير من المحللين السياسيين والخبراء العسكريين يرون فيه بديلا لحلف وارشو الذي تفككك بعد انهيار الاتحاد السوفيتي في تسعينيات القرن الماضي ومنافسا في الوقت ذاته لحلف شمال الاطلسي (الناتو) ، كما يعتقد هؤلاء الخبراء اذ احد اهم اهداف المنظمة هو محاولة السيطرة على الاوضاع في حدود كل من روسيا والصين ومنع انفلاتها واندلا ع الازمات فيها بما يسمح للولايات المتحدة وحلفاؤها في المنطقة من التدخل وممارسة الضغوط على هاتين الدولتين .

ينفي اعضاء المنظمة مثل هذه الفرضية فهم لا يخططون لتشكيل تحالف عسكري بقدر ما يسعون لتنسيق جهود الاجهزة الخاصة بمكافحة الارهاب والجريمة المنظمة والمخدرات كما يؤكد ذلك وزير الخارجية الروسي (سيرغي لافروف) ووزير الدفاع (أناتولي سيرديوكوف) الذي ذكر في احد تصريحاته (ان منظمة شنغهاي للتعاون لا تعد حلفا عسكريا ، ولا ترى نفسها خصما لقوى اخرى) مضيفا انها (تلعب دورا تتزايد اهميته في السياسة الاقليمية والعالمية ، وان اعضاء المنظمة يؤكدون عدم وجود مكان في العالم حاليا للمواجهات بين الاحلاف السياسية العسكرية) .

ورغم انه من السابق القول فيما اذا كانت هذه المنظمة بديلا لحلف وارشوا لا انه من المؤكد ان دول المنظمة تبذل قصارى جهدها لتكون لاعبا جديدا على الساحتين الاقليمية والعالمية قادرا على لعب دور مؤثر وهذا ما اكدته المنظمة في البيان الصادر عن قمتها التاسعة المنعقدة في مدينة ايكاترينبرغ الروسية في 16 حزيران 2009 حيث ذكر البيان الختامي للمؤتمر " ان التبدل الحاصل على الصعيد الدولي المعاصر والرغبة في السلام والتنمية المستدامة وتعزيز التعاون المتوازن اصبحت سمة هذا العصر ، لذلك فأن التوجه في النظام المتعدد الاقطاب في العالم اصبح امرا لا مفر منه ، وهناك دلالات متنامية لقدرة المنظمات الاقليمية على حل المشكلات والازمات الكونية " .